النص الموازي في رواية تفنست لعبد الله حمادي
دراسة سميائية تأويلية

ملخص

النص الموازي في رواية تفنست لعبد الله حمادي محاولة لتوظيح التقنيات والميكانيزمات التي تساهم في تنامي العنوان بوصفه علامة خطابية دالة إضافة إلى الغلاف؛ الصورة واللون بوصفهما دعائم مهمة في الكشف عن سيرورة العلامات وصيرورتها في ضوء علم موسع يعرف بالتأويل السميائي الذي يقرأ العتبات قراءة مبنية على التحليل الفكري متجاوزا في ذلك البحث عن المقاصد إلى الوقوف عند تأويل من التأويلات المنطقية التي ينضوي تحتها كل من العنوان والغلاف.

فالنص الموازي كما وضح الدكتور جميل حمداوي بأنماطه المتعددة ووظائفه المختلفة هو كل نصية شعرية أو نثرية تكون فيها العلاقة، مهما كانت خفية أو ظاهرة، بعيدة أو قريبة بين نص أصلي هو المتن ونص آخر يقدم له أو يتخلله مثل العنوان المزيف والعنوان والمقدمة، والإهداء، والتنبيهات، والفاتحة، والملاحق والذيول، والخلاصة، والهوامش، والصور، والنقوش، وغيرها من توابع نص المتن والمتممات له مما ألحقه المؤلف أو الناشر أو الطابع داخل الكتاب أو خارجه مثل الشهادات والمحاورات والإعلانات وغيرها، سواء لبيان بواعث إبداعه وغاياته، أو لإرشاد القارئ وتوجيهه حتى يضمن له القراءة المنتجة.

أ. بدرة فرخي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري قسنطينة
الجزائر

Résumé

La recherche paratexte dans le roman tefounest vise à clarifier les mécanismes de la sémiotique interprétative du titre et la couverture délibérément comme une partie important.

La sémiotique interprétative peut être définie comme science du sens qui traite des systèmes et des ensembles non systématique de Seuils comme des signes servant à la communication aussi qu autre branches du savoir et de la recherche scientifique.

Le Paratexte est une méthode préférée pour divulguer la nature de signe L'image de la langue et de l'évolution dans le roman tefounest juste . Tentative de voir Texte marges du texte d'origine afin de faire des observations Texte marges du texte d'origine afin de faire des observations ou des précisions ou d'augmenter la confusion.

الغلاف نموذجا -العنوان والصورة-

يعد مفهوم التأويل من المفاهيم الرائدة في المجال اللغوي والتي تسمح بالكشف عن نشاط العلامات بوصفها أنظمة دالة داخل السياقات التي تنتمي إليها .وبذلك يمكنها خلق تواصل دلالي مع بقية العلامات التي توظف في منظومتها الخاصة والعامة.

وقد شغل هذا المفهوم حيّزا هاما في الفكر الإنساني، إذ استطاع فرض آلياته على كل الحقول المعرفية، سواء منها الفلسفية أو اللاهوتية أو الأدبية ... كما قام بالتأسيس لأسئلة جديدة، تبحث لها عن إجابات في الحقول السالفة وغيرها. لذلك

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2008.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالحوار المكثّف للتأويل مع المجالات المعرفية رهين إلى حدّ كبير بتركيزه على مفهومي اللغة والنص.ومن الطبيعي ، في مثل هذه الحالة ، أن يصبح التأويل مركز ثقل التفكير المعاصر ، بسبب ما يولّيه من أهمية قصوى لقضايا اللغة وتأويل النص.لذلك تجد كلاّ من النقد الأدبي والسميائيات وفلسفة اللغة والإلهيات... وطيدة الصلة باللغة وفهم النص.

تنطلق السميائيات التأويلية من تصور ينظر إلى النص على أنه خزان من الاحتمالات الدلالية ، وليس تجميعا كمّيا لعلامات عرضية الوجود والاشتغال ، وعلى أساس هذه الملاحظة ، فإن المعنى داخل النص لا يمكن أن يصاغ بشكل مرئي متحقق إلاّ في حدود انبثاقه من عمليات تخص بناء النص ،كما تخص أشكال تلقيه وتداوله لأن كل إنتاج للمعنى مرتبط _من وجهة أولى _بمادة مضمونية سابقة في الوجود على التحقق ، ومرتبط من وجهة ثانية_ بسيرورة معينة للتعرف والإدراك ،و العمليتين معا تشكلان سيرورة التدليل ، وفي غياب هذه السيرورة (السيميوزيس) يستحيل الحديث عن بناء نصي .

يطلق بورس على هذه السيرورة " السيميوزيس" أو السيرورة التدليلية ؛ أي السيرورة التي يشتغل بموجبها شيء ما بوصفه علامة ، وهي سيرورة تتصل بقضايا الدلالة وبكيفية إنتاجها وطرق اشتغالها .ويقصد بالسيميوزيس (...) الفعل أو التأثير الذي يستلزم تعاضد ثلاثة عناصر هي ؛ العلامة وموضوعها ومؤوّلها ، ولا يمكن لهذا التأثير الثلاثي العلاقة أن يُختزَل بأيّ شكل من الأشكال إلى أفعال بين أزواج .؛ إنها سيرورة ثلاثية تقوم بتحريك ثلاثة عناصر ؛ ما يعمل بوصفه علامة ، وما تحيل عليه هذه العلامة ثم الأثر ويُنظر إلى هذه العناصر على نحو :ماثل (أول) وموضوع (ثان) ومؤوّل (ثالث) ؛ إذ تتحول إلى نسق تتحكّم في إنتاج الدلالات وتداولها..1

شهدت الدراسات والأبحاث السردية في السنوات الأخيرة اهتماما كبيرا بالعتبات عند جيرار جنيت أو العنوان بصفة عامة عند شارل كريفل،أومايسمى اختصارا بالنص الموازي. Le paratexte أو La paratextualité

وقد أثار المصطلح السابق في استعمالات جنيت وتوظيفاته اضطرابا في الترجمة داخل الساحة الثقافية العربية بين المغاربة والمشارقة. والسبب في ذلك يعود إلى الاعتماد على الترجمة القاموسية الحرفية، أو اعتماد المعنى وروح السياق الذي وظف فيه في اللغة الأصلية.

فالنص الموازي هو تلك الوحدات الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالا يجعلها تتداخل معه إلى حد تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالا يسمح للداخل النصي _كبنية وبناء_ أن يشتغل وينتج دلاليته2.

وقد تنبه الباحثون المحدثون إلى الأبعاد البراغماتية لهذه المرجعية السياقية المهمة في تحديد المسار الدلالي والتي ضعف الأخذ بها إلى حد التعسف في القراءة التأويلية المدعمة بمنطقية العلامات وانفتاحها على ميكانيزمات التناص الناقدة. وقد أثبت محمد بنيس أن الشعرية اليونانية الأرسطية، والشعرية العربية لم تهتما "بقراءة ما يحيط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنص من عناصر أو بنيتها أو وظيفتها"، وقد قادته عملية الملاحظة والاستقراء إلى العثور "فيما بعد على دراسات نصية حديثة في حقل الفلسفة والشعرية خصوصا، تنصت بطريقتها إلى هذه العناصر كما لعناصر أخرى تشكل معها عائلة واحدة.3. و يحتل العنوان باب الصدارة كونه من أهم العناصر التي يستند إليها النص الموازي ؛ فهو بمثابة عتبة تحيط بالنص ومن خلالها يعبر السميائي أغوار ذلك النص المشروط بنظامه الرمزي . فيكون العنوان جزءا يراد به البنية الكلية الملخصة في مفهوم النص الموازي عند جنيت وبخاصة عندما يحدده على أنه ما يصنع به النص من نفسه كتابا،ويقترح ذاته بهذه الصفة على قرائه،وعموما على الجمهور ؛أي ما يحيط بالكتاب من سياج أولي وعتبات بصرية ولغوية4.

تسمح الطرحات النظرية السابقة بالكشف عن أبعاد القراءة النصية الموازية والتي تفصح عن خواص الرؤية السميائية بشكل منظوماتي متطور يكشف عن واقع الدرس السياقي من الدرس النسقي كثنائية مهمة جدا في

تجلي الرؤية تجليا ميدانيا يجد تفسيراته وتوضيحاته في أعمال عبد الله حمادي الروائية –تفنست نموذجا حيا –يصور عالم حمادي الزاخر بإشكالات تختبر كفاءة اللغة في تمثيل جزئيات هامشية في الحياة.فتجدنا نبتغي تحليقا حيث حلق يلون أثره الروائي في تمازج فسيفسائي يستدعي استئنافا متكررا عند كل قراءة.

وهنا تتمازج العلامات عبر نشاط تداولي يسرد مقتطفات ماضوية في نمط سردي يقمع الحضور العيني المستقل إلى حضور النمطية المتميزة في الإخراج الموجز للرواية وكذا على مستوى اللغة الإنزياحية التي أرادها الروائي .

تفنست رواية تختصر روايات كثيرة في نمط إبداعي بليغ ؛ فهي سرد لمجوعة من الأحداث يخضع لآليتي التضمين الحكائي والمفارقة.

رصدت شخصيات صريحة وضمنية في بعد تناصي يفصح عنه مجموعة الروابط السردية التي تتنامى في عالم الرواية الحديثة ؛ العالم الذي لا يمكننا الولوج إليه إلا بإتقان مهارة التفكيك وتقنيات الكشف عن مدلول العلامات كشفا شاملا يتعدى حدود التمفصل الترتيبي إلى جماليات التمفصل التراتبي للوحدات اللغوية ،فالسياق العام الذي يجد محدداته في الفضاء الروائي العام، يحدث فعلا الاتساق على المستوى الفني الذي يتنامي تناميا قيميا يدمج في دعامة انسجام النص في بعده التأويلي الذي هو سمة جوهرية في البحث. و القراءة التأويلية تتجه دوما نحو محاولة إضفاء البعد الرمزي ودلالاته بطريقة منطقية تخضع للتحليل العلائقي للعلامات، ومحاولة تحديد مدلولها في مرجعياتها التي تنتمي إليها.وقد عبر عن هذه الظاهرة تاريخيا في أغلب الأحيان على أساس التفاعل بين فعل وبنية5.

تأتلف محاور هذه الدراسة -في أصل القصد منها_ لرسم صورة سميائية تأويلية للتوظيف العلاماتي في الرواية ثم محاولة إخراجه المخرج السليم المستجاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للسيرورة النسقية بالنسبة للعلامة في وصفها الأحادي البعد وصيرورتها السياقية التي تكمل المفهوم العلاماتي كخطاب مفعم بطاقات مجسدة في البنية العميقة لمختلف البيانات الموجزة في الرواية .وهي تساهم وبشكل مباشر في التأسيس للوحدة الدلالية الكبرى المفسرة لآفاق تأويل تفنست الحمادية .

تتدرج الدراسة نحو ما يعقب الحدث من تحولات يفرضها البرنامج السردي القائم على مبادئ التشويش وكسر الوقائع كسرا يراد به استفزاز ذهن القارئ المثالي الذي كثيرا ما ترهقه الإنزياحات وتلبي نشوته بلذة القراءة البناءة في آخر المطاف.

ولطالما شكلت العناوين بؤرة أساسية في تأويل النصوص الأدبية وتحديد أبعاده السميائية العامة وذلك نظرا للوظائف الأساسية المرجعية والإفهامية والتناصية التي ترتبط بهذا الأخير وبالقارئ. ولن نبالغ إذا قلنا بأن العنوان مفتاح إجرائي في التعامل مع النص في بعديه الدلالي والرمزي6.

وما يهمنا في هذا المقام هو تتبع التطور الدلالي للتوظيف اللفظي تفنست وكيف احتوتها الرواية وسميت باسمها.

سميائية النص الموازي في رواية تفنست
العنوان والصورة نموذجا

تفنست رواية جزائرية معاصرة تحمل مقولات سيمية مبنية على التقابل الثنائي الذي يؤكد طبيعة التناسل في ضوء القراءة المثالية التي تعرف في أبسط مستوى البديهة الشخصية على أنها دمج وعيينا بمجرى النص .

1-سميائية العنوان :

إن الأدب مثل الفوسفور يلمع أكثر في اللحظة التي يحاول أن يموت فيها كما يقول رولان بارت .وتأتي تفنست التي تروي نفسها في خضم صراع التجارب الذاتية التي عاشها عبد الله حمادي صراعا تعادلت فيه الوقائع على مستوى الإخراج الشكلي للرواية وتغلبت فيه تفنست خيطا نفسيا يشد الحكايات التي أقيمت على مبدأ التضمين الحكائي نحو :

أخموت وهو يسترخي في أريكة عربة القطار يستحضر لثامه الأبيض ؟،وفروسيته مع يوميات الباطرول...مشكلة ذلك التناعم الأبدي بين مشفري ناقة طرفة بن العبد المرقال،وعلنداة النابغة التي تشبه الثور الوحشي....من نافذة القطار الجارف تبدو علامات الوصول إلى مشارف إيرون ،ذاك المعبر الحدودي أي الصناديد من رجال الباسك لا يقلعون ....في هذه المخاضة الجبلية الكل يعتصم بالظلال ويتلفع بالخضرة والنضارة الفارهة،وبروح الحانات الخشبية المفعمة بلحم الجواميس والخنازير البرية....هؤلاء الجبليون لا يفقهون من لغة الطبيعة سوى بالرد على آهاتها بقسوة الشاقور...ص13.12 إنها سيرتا المعلقة بين الأمل واليأس بأشطان من برق.....هناك بداية المنتهى ونهاية المبتدأ ص15. ويأتي الفصل الرابع الذي يحدده الملفوظ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تنهد أخموت الترقي تنهيدة تشبه الشهيق أو النشيج ،ثم حملق مليا في زجاج نافد القطار وهو يرسو في محفر جمارك إيرون بجبال البرانس.....كانت أستير إحدى التروزات التي أفرزتها ريشة سافادور دالي..ص21.20 تتنوع مضامين الرواية بشكل يوحي _للوهلة الأولى_ بفجوة غير معللة أو غير خاضعة لقانون البنية التشكيلية للنص الموجزة في دعامتي الاتساق والانسجام بوصفهما من أهم آليات الدراسة النصية. إلا أن المتأمل في بنية الرواية العميقة يجدها تؤول في آخر المطاف نحو خدمة اللفظم تفنست.

وقد يبدو من جهة أخرى أن تفنست _بوصفها لفظما شكل عنوان الرواية_ قد شغلت حيزا محدودا في الرؤية السردية وقد ثبت حضور اللفظم في الفصلين السادس والسابع و أول حضور له يتعين في قول أخموت بطل الرواية: ...ما اسمك ياصحراوية ؟ تأملت في عينيه البراقتين ولمحت فيهما علامات الشوق إلى السرير....

وقالت :تفنست...ص36 .

يلمح المتتبع في سيرورة البرنامج السردي -المثقل بالأحداث الفاعلة لتفنست_ إحالات وصفية تستمد وجودها من الطبيعة الصحراوية نحو:

كان في تفنست من قد البقرة الوحشية ما يشبع حال الأيتام في مأدبة اللئام ،..يعتري الذبول عينيها من تعاطي موبقات الصبار والقنب الأفريقي... هكذا تصور تفنست ؛ صورة للفتاة الصحراوية وتستمر في اتجاه دلالي واحد يكشفه العرض السردي المباشر الذي يصور لنا حوارا تداوليا بين أخموت وتفنست نحو: فقالت يا اخناتون، فقاطعها قائلا: اسكتي لا تراعي ،أخموت من فضلك ،فقالت زي بعض على لغة ....ثم واصلت هدرها قائلة له :ألم يكن أخناتون جدك الأعلى وجد أعراشكم التوارق الزرق الملثمين كنساء الشمال؟ص38-39

.....فرد مزهوا :وهل في ذلك من شك ...ص39 فقاطعته:تمهل ،رويدك،أما زلت تتقن الهيروغليفية؟.

يشكل لفظم تفنست وحدة صوتية بنيوية موجزة من حيث الأركان المشكلة تنتمي إلى الوصف البنيوي السطحي في شكل يختزل نصا كبيرا عبر التكثيف والإيحاء والترميز والتلخيص. وهكذا تشكل الملحقات المجاورة للنص (المؤلف-الجنس-المقدمات-العناوين-الحوارات إلخ...) نصوصا مستقلة مجاورة للنص وموازية له. ولهذا فضلنا استعمال مصطلح (النص الموازي) مع توظيف مفاهيم أخرى كالعتبات وهوامش النص والملحقات النصية لتعضيد هذا المصطلح الأساسي.

تتضاءل مساحة تأويل لفظم تفنست شيئا فشيئا مع سيرورة الحوار في الرواية. إذ سرعان ما يتخصص المصطلح ويتحدد صنفه الأول الذي أطلق عليه ،نلمس ذلك في قوله : لا ياسيدتي التنفنست ،...ص39 وكأنها نكرة في الأصل يريد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعريفها وإرجاعها إلى انتمائها الأصيل. ومن الواضح نحويا أن تفنست اسم علم مكتف بذاته فنقول تفنست مثلما نقول نوال وسعاد . ولا يجوز نحويا قول: محمد بدلا من المحمد ،ونوال وسعاد بدلا من النوال والسعاد ويستثنى من ذلك كله الأسماء التي تدل على أكثر من شيء أو مسمى.وهو حال ينطبق على تفنست التي تتحدد دلالتها النهائية في الملفوظ التالي: قوله : ...وإن شئت بلغة أهل الحيرة يا سيدتي المها ،وإن شئت بلغة أهل الجبايلية في الميلية :حن بكره ...ص39 .وعادة يكون الاسم النكرة بعدا سرديا يتحدد بموجبه نمط البناء اللغوي المشاكل لنمط التفكير الأول الذي ينزلق من صاحبه بعد توهم النضج والاكتمال. فهو ينهض على التخييل للحظة مسروقة من وقت مستقطع، تكون فيه الذات حرة وطليقة من أسر الزمكان؛ لحظة ذاتية وخصوصية جداً، ولكنها في الوقت نفسه تعبير عن رغبة أو رغبات تسعى للتحرر من ضرورات الوعي الخاضع لاشتراطات جمعيّة تستوجب على الدوام التقنّع بقناع محدد. ولكن الرؤية السردية تتحدد بتشكيل معرف يفضي إلى تجربة واقعية معاشة تفاعلت مع مجموعة من الأحداث الإطارية التي ذابت في مشاهد الوصف والتفسير والشرح وغيرها من العناصر اللغوية العاملية التي تساهم في تشقق الكتلة النصية التي توهم بالتوحد في الرواية .ومن يتوهم توقف التعريف التأويلي ههنا يكون قد وقع في الخطأ ؛إذ بعد الاحتكام إلى الخصوصية اللغوية -التي ذ ابت فيها المشاهد السردية وانتصرت على حسابها طبيعة التوالد اللغوي الذي حول في طبيعة البرنامج السردي_ تتجلى المحاولة التشخيصية التي تسير في ضوئها تفنست على النحو التالي :

تافوناست التسمية الترقية ذات الجذور البربرية توازي بنية صرفية متكونة من تا زائد فوناست؛والتاء في الأمازيغية تقابل ال التعريف في العربية.أما فوناست فهي تمثيل بنيوي عميق تؤوله المرجعية الأمازيغية التي تمنحنا قدرة على تحقيق فهم التسمية تافوناست والتي عدلت بقاعدة تحويلية قلصت في حجم الأصوات فصارت تفنست ؛ التاء مفتوحة ، والفاء مضمومة ، والنون مفتوحة والسين مكسورة والتاء ساكنة اتساقا مع خصوصيات البنية السطحية التي تقف عند حدود الوصف المحسوس والذي لا يستطيع تحمل معنى البقرة الوحشية في بعده النسقي .

يتساءل القارئ عن سر التسمية من جديد ،وهو استفسار يجد سبيل تبريره في دلالة تفنست على أكثر من شيئ كما سبق وأشرنا بالنسبة لاسم العلم وأداة التعريف، فهي البقرة الوحشية عند الأمازيغ ،وهي التسمية الترقية التي تعني المها ، كما أنها الجزائر بلغة حمادي والتي تكتمل فيها صور الحضارة وهي تمس أركان البلاد رغم بساطة بعضها أو بعدها الجغرافي عن سبل التطور أو الارتقاء.

وهاهي تفنست تعبر الجنوب قاصدة الشمال تفيض أنوثة مزقت أجواء التخيل عند أخموت وتضاعفت بعنفوان التقشف الذي طغى على محدودية التلميح .وتدحرجت لغة الغواية، نحو: ..... انظر بين فخديك إنها هناك...ص37 أليست مثل هذه الشاحنات العملاقة المعدة للأسفار... يكاد الجينز البالي والمرقع والمتعدد لاالرسومات السوريالية أن يتفزر من كثرة مادك فيه من اللحم المجفف والطازج من لهيب الشمس.... ...راحت تتفرس في كل تفاصيل جسده...فحروب الدنيا كلها من أجل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويلات السرير.. تأملها أخموت من أخمص رجليها إلى سنابل شعرها...
وينفث ما بصدره من وهج.. ...بإمكانك فتح النافذة وخلع..تردد خلع؟...خلع الجاكيت لوشئت ؟

وتمضي الأحداث نحو المفاجأة غير المعهودة ،إذ كثيرا ما يتوقع القارئ أن فضاء كذاك سينتهي نهاية تستجيب لدوافع غريزية تقهر حضور الأنا الموضوعية وتستسلم لانحرافات سوية تعذر توقع الخطأ.وعلى عكس من ذلك تمضي تفنست في رحاب التحضر والحوارية الواعية لتنتهي نهاية تقر ثقافة وحضورا علميين يغفرا ركوب تفنست الفولفو وتمردها على التوافق البيئي إلى أصل التوافق وجوهره مزعزعة تجليات المفارقة البنيوية ومؤكدة على حقيقة التمازج والحلول المعرفي لبناء فسيفساء الثقافة عن تعقل ودراية.

تفنست الصحراوية التي انطلقت كالمها تجول صحراء قاحلة تندمج مع وعي الآخر بطريقة تراود الفكر على تحديد التأويل وتقزيم انفتاحية الإبداع. ولكن المراد لن يصدح في حضرة التقيد التأويلي بل تفطن من ذات اللغة إلى ضرورة المخالفة عن طواعية ومجازفة ترافعت في حضرة ملفوظات الغواية وأقرت في وصف تحضري يجسد نباهة نخبوية تفعم المشهد بمفارقات رمزية تنبه بسلوك غير مقيد.

وكما سبق وأشرنا فتفنست تحضر في الرواية عنوانا يتكرر لفظما في فصول الرواية تكرارا محدودا مهد له بقول الراوي:

ما اسمك ياصحراوية ؟تأملت في عينيه البراقتين ولمحت فيهما علامات الشوق إلى السرير وقالت :تفنست...ص36.

يلتحم تفنست بالنص التحاما كبيرا تتولد معظم دلالات النص في ضوئه. و عندما يتساءل القارئ المثالي عن مدلول اللفظم بعيدا عن سياقاته تلفاه شفرة منغلقة الدلالة لا تقدم أية أبعاد براغماتية على مستوى القراءة والدلالة وتؤول هذه الإخفاقات في عمومها بمحدودية المرجعية الثقافية للقارئ وعدم الإلمام بالموروث الشعبي إلماما كاملا.ولن نعيب على القارئ ضعف قراءته ههنا أو عجزه في فك شفرات اللفظ لأنه وباختصار ليس مسؤولا عن تعدد الدوال في اللهجات ولا على انفلات المصطلح من مستوى الفرد والعادات والتقاليد إلى مستوى النخبة .

ولما كانت التفنست هي المها تطلب الأمر إعادة تعريف الاسم الأول عن طريق إضافة الألف واللام اللذان جعلا تفنست تبدو نكرة مبهمة لا تدل على صاحبها العيني بقدر ما تدل على ممثلها النيابي.وهو تعريف يتناسب ومقصد أخموت الذي تقصد المها كحيوان وليس تفنست كفتاة تتشبع بمعاني الرقي والحضارة .وهو بعد تفسيري يلخص في مسار القراءة التي تلهث وراء المقاصد والأغراض.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلعب تفنست دورا كبيرا في تحول البرنامج السردي دلاليا،وهو الأمر الذي يجعل القارئ الناقد يعيش مشهدين اثنين في الوقت نفسه ،مشهد الحوارية المألوفة التي تجمع أخموت مع فتاة صحراوية، ومشهد آخر تكتمل تفاصيله في استرجاع فوري لصورة المها العابرة لمساحات الصحراء تترك لمساتها في ذاكرة الفنانين وتستلهم ذاكرة الأدباء بتشخيص أنثوي ظل الشاعر يتغنى به ولا يجد له بديلا.فراح يشفي به أركان الفضاء و أركان محبوبته التي فاضت بها قوام المها تشكيلا جماليا خالدا.

المها العربي(Oryx leucovyx) ، كان في الماضي يتجول في معظم المناطق الصحراوية في الجزيرة العربية، بما في ذلك بعض أكثر المناطق جفافاً في وسطها، أراض ظلت مجهولة لقرون، وكان المها العربي في الماضي البعيد يحرك الوجدان ويلهم شعراء العصر الجاهلي فتجود قرائحهم بأعذب الشعر.. وكأن المها العربي ليس حيواناً من حيوانات البرية، إنما هو ملهم لخطاب ثقافي عربي وحضاري، ولكن هذا الحيوان الذي يختال في مشيته ويُجمل بصورته بيئته، بدأ ينقرض في بداية السبعينيات الميلادية من القرن الماضي، وهكذا فإن قصة ماضي المها العربي في الجزيرة العربية طويلة..

هكذا تكون تسمية الفتاة الصحراوية بتفنست أمر طبيعي يستجيب للانتماء البيئي الأول لكونها وباختصار ابنة الصحراء التي ظلت تجولها تلك المها ،تغير من قدر الصحراء الأسود الذي عانى فيه الشاعر و المبدع سنين وسنين ،يجول أخطارها ويقف صامتا مندهشا أمام فلسفة الحياة وهي ترسم أقداره ،فتلهم ذاكرته بصورة البقرة التي تهاطلت عليها الأمطار حد الجهر والاستغاثة، فأسقت بعضا من جفائه وتعطشه وأشبعت حرقة ظلت تراوده على نفسه.وهاهي تلتجئ إلى جدع شجرة ميتة مفندة خرافات الانتهاء بصراع الأنا من أجل البقاء مؤكدة فلسفة الموت في الحياة والحياة في الموت.

ولطالما كانت المها أجمل ما ينسي الشقاء والعناء فيأخذها المبدع كما هي، ويروى في تفاصيلها مفاتن محبوبته ويتغنى باسمها مستهدفا آيات ضعفه وتهاونه. لتكون بذلك أصل إبداعه ،ومحفز تميزه بصور تنذر في وقتنا وينذر حضورها لحظة تفوقت في فلكها التمثيلات العلنية ،وغابت التجسيدات الطبيعية ،واستحضرت فيها الشهوات الحيوانية استحضارا آليا لا يمتلك حق التنفيذ الفني أو التجاوب الواقعي.7

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري .

تتواتر هذه الصورة بشكل واضح في دول الخليج العربي كالبحرين والإمارات والسعودية استجابة لفضاء الانتماء. وكأنهم يحملون قدسية الطبيعة في أنفسهم وذاكرتهم لأنها كانت مسرحا واقعيا لتحولات وقائعهم الشخصية والعامة وكانت ولا تزال ترتل حب التفاني في بقاع أثبتوا فيها أن الحياة هي العناء أملا ورغبة في الحفاظ على الوجود الذي سرعان ما انعكست حقيقته في مشاهد الرحلة والثور الوحشي وضعف البقرة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2-سميائية الصورة واللون :

تمتلئ أركان صورة الروائي عبد الله حمادي باللون الأصفر الذي يحققا انسجاما شكليا دلاليا مع الرواية و وفضائها الأول المتمثل في الصحراء وما تحتويه من جمال صفر وأشعة حارقة تستمد لهيبها من حرقة الرمال الذهبية التي امتد لهيبها وصار من طباع الصحراوي الصلب القوي و القاهر للحظات الثبوت والسكينة.

كانت صورة الغلاف من جنس ذكري وليست من جنس أنثوي وكان الاحتمال كبيرا في توقع انتماء الصورة المشكلة إلى الجنس الثاني؛ فتكون صورة فتاة صحراوية حتى تستجيب لعنوان الرواية تفنست كتسمية ميزت الفتاة الجنوبية .ولكن الواقع كان غير ذلك فالانتقاء مقصود ومتعين يتمثل فيه الروائي صورة البطل إيحائيا وكأنه أخموت الأزرق كما ترسمه الألوان المجسدة ؛ الأصفر يخالطه على المحيى اللون الأسود كتمازج فني يعكس واقعا صحراويا ملموسا. وقد كبرت الصورة بشكل يرسم لنا غلظة الصحراوي وصلابة ملامحه التي شكلت تضاريس قاتمة لا تكتفي بصمتها بقدر ما تفهم بصدق الرواية وقربها الواقعي وملامستها للحدث ملامسة لا تترك فجوة كبيرة بين الرؤية السردية والخطاب.

ويتجه التأويل السابق ليؤكّد بقوّة تبعية المرأة للرجل كرمز لسلطة اجتماعية وثقافية غير منظورة، ولكنها ملتمسة من خلال سلوك الشخصية النسائية في الرواية، وهي شخصيّة محورية ، يمكن اعتبارها نموذجاً معبّراً عن محدودية مساحة الحريّة التي ما زالت المرأة المثقفة تعيش فيها؛ فهي بتعبيرها أشبه بالمربّعات المتجاورة التي ليس من السهل تحطيم أضلاعها والانفتاح على بعضها في الحدّ الأدنى، وربّما الحال كذلك بالنسبة للرجل الذي وجد نفسه أسير هذه المربّعات التي صنعها بعناية،ثمّ باتت وبالاً عليه.

هكذا يتخذ اللون الأصفر بعدا رمزيا يجد تفسيره في الحياة الواقعية التي ينتمي إليها الصحراوي ،فهي موطنه الذي لا يستطيع أبدا الانسلاخ عنه لأنه وباختصار هويته ،ورمله بحر نأيه الذي تبحر فيه بحثا عن عيش ظل يهدده ،وهو بالمقابل مصدر عيشه باحتوائه أجود ثمار الكون وأنفعها؛ تمور عسلية رددت بدورها قدسية الانتماء، فاصطبغت باللون الأصفر الذي يوحي بالشحابة والمرض ،وغياب الفتوة والخضرة وهو شرح يصب في دال اسمه الموت .و في استقطاب آخر يكون الأصفر لون الشمس والنار واللهيب وهي توظيفيات تجمع القوة و الشجاعة ،ولولا مراجع تلك التوظيفات ما كنا لننتفع بأشياء كثيرة يستمتع بهاو بصورة واضحة أهل الشمال ومن ينامون في فلكهم.

رواية تفنست ، رواية موجزة كما ،متفردة كيفا،فهي مادة وخطاب غالب ، تذوب فيها المشاهد لتحيى على عتبتها تناقضات الوجود وتستلهم الفكر إيحاءا رمزيا يجد مبرراته في غاية الخلق والنشوة وتحدي الصور المألوفة التي أرهقت برامج إعلامية تكثيفا علنيا. فمضت في نسج تجاوز كفاءة الراوي نفسه إلى كفاءة اللغة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسلطتها وبخاصة في سبرها لأغور الحياة وصولا لأدق تفاصيلها ؛ بمعنى أنها رواية تختبر الطاقات اللغوية اختبارا يعزز المرجعية الطبيعية ومنطقية الرؤية بشكل تلقائي.

كانت هذه وقفة مستقطعة حاورت رؤية أولى من رؤى رحلات حمادي التفنستية وقد أرادها موجزة في تصريحاتها موحيا بهامشية بعض من فصولها مدعيا انهزامها وخشية انزلاق الفولفو في مشهد الغواية .وها هو ميقدس حضورها ،يعترف بمفاتنها ،مؤكدا على تحضرها في عنوان الرواية التي فارقت البناء الروائي الحديث.

فهل هو دليل على عدول آخر في السرد الروائي أراده حمادي عنصرا من عناصر التشويق والاستفزازات المعاصرة التي نتوقعها في مشهد آخر يحكي تفنست في صفحات أطول في مغامرة جديدة قد تبلور في الجزء الثاني من الرواية؟.

المراجع

1_رواية تفنست، د.عبد الله حمادي ، منشورا ت المكتبة الوطنية ، بن عكنون ، الجزائر2004 .

2-انظرسعيد(بنگراد):السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، ص : 172 / 173 .

وانظر حنون (مبارك) دروس في السيميائيات منشورات دار توبقال الطبعة الأولى 1987 ص :5

3.الدكتور جميل حمداوي ، لماذا النص الموازي،مجلة الدروب الإلكترونية.أغسطس 2000،ص1.

4-محاضرات الملتقى الوطني السيمياء والنص الأدبي،جامعة محمد خيضر بسكرة،قسم الأدب العربي كلية الآداب والعلوم الاجتماعية.8.7 نوفمبر 2000 ص40.41

5-المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي ،ت يوئيل يوسف عزيز، 1987 ،ط1 دار المأمون "ص17.بغداد.

6- محاضرات الملتقى الوطني السيمياء والنص الأدبي ،مجلة تصدرها جامعة محمد خيضر بسكرة،ص38.

7-مجلة أهلا وسهلا السعودية ،طبيعة وبيئة ، موقع إلكتروني معتمد في الأنترنيت.

.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com